مدرسة الإسكندرية

الذي يزني يُخطئ إلى جسده

للقديس غريغوريوس النيصي

د. سعيد حكيم

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد التاسع - ٢٠١١

مجلة مدرسة الإسكندرية
عدد ٩

”الذي يزني يخطئ إلى جسده“

للقديس غريغوريوس النيصي

ترجمة: د. سعيد حكيم

"الذي يزني يُخطئ إلى جسده"

للقديس غريغوريوس النيصي[1]

ترجمة د. سعيد حكيم
دكتوراه في العلوم اللاهوتيّة. جامعة أرسطو. اليونان
باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية
S.hakim@alexandriaschool.org

خطورة خطيئة الزنا[2]:

مُخيفٌ هو بوقُ الأمر الرسولي، إذ أنّه يَعِدُ جموع المؤمنين بأمورٍ كثيرةٍ، بل يحاول بشكلٍ أساسيٍّ أن يُبْعِدهم عن هوّة الرذيلة، وفي النهاية يُضيف أمرًا عسكريًّا. لأنّه يقول: «اهربوا من الزنا. كلّ خطيئةٍ يفعلها الإنسان هي خارجةٌ عن الجسد»[3]. إنّ الجنود في الحروب التي فيها التحامٌ جسديٌّ يُنسِّقون فيما بينهم بمعرفةٍ تامّةٍ ويُحدّدون كيف يكون هذا الالتحام، فتارةً بالصدام وجهًا لوجه، وتارةً أخرى بتجنُّب الاشتباك والهروب. وهناك الحروب النفسيّة، والتي تُدار إمّا بالمقاومة أو بالهروب.

الرسول بولس يعرف هذا، وهو واحدٌ من جنود الإيمان، ويقود الجيش مستخدمًا هذا التكتيك أو ذاك بشكلٍ جيّدًا جدًا، فهو يأمر أحيانًا بالمقاومة في المعركة قائلاً: «فاثبتوا مُنطقين أحقاءكم بالحقّ ولابسين درع البر»[4]، وأحيانًا أخرى ينصحنا بالهروب من مواجهة ما يحاربنا، قائلاً: «اهربوا من الزنا». فإنْ كان الاتّهام بالجحود يُسيء إلينا، فمن المفيد مقاومته، وإنْ كان

---

[1] تمت الترجمة عن النص اليوناني الأصلي المحقَّق والمنشور في سلسلة آباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانيَّة ΕΠΕ والتي تصدرها دار النشر «Το Βυζαντίον» بتسالونيكي- اليونان، سنة ١٩٧٣م، المجلد رقم ١٠، ص. ٢٨٨ــ٢٩٩.

[2] العناوين الجانبية منْ وضع المترجم.

[3] ١كو٦:١٨.

[4] أف٦:١٤.

هناك تهديدٌ لنا من قِبَل العبيد، فمن المفيد أيضًا الصمود في مواجهة هؤلاء الخصوم إذا أطلقوا علينا سهام الوشاية.

إذ أنه عندما تكون المعركة مواجهةً، فهي تعتبر أمرًا فعّالاً في دحض الكذب. ولكن عندما تُوجَّه لنا سهام الزنا، فمن المفيد أن نُدير لها ظهورنا ونهرب من المواجهة. لأنّ الزنا يُحقّق هدفه عن طريق النظر، ويجب أن نتذكّر القائد الذي أعطانا هذا الأمر: «اهربوا من الزنا».

لأنّه يعتبر الزنا أكثر خطرًا من الخطايا الأخرى. بمعنى أنه يعتبر أنّ الأنواع الأخرى للخطيئة لا يُجرَّب بها الجسد، وأنّ العمل ينحصر في مَنْ يرتكب الخطيئة فقط. وعلى سبيل المثال في السَلِب أو الخطف، إنّ الضرر الذي يقع يكون منحصرًا فقط في تلك الأشياء التي سُلبت. والحَسَد ينشأ عن الرغبة في أن يؤذي الحاسدون المحسودين. أمّا الوشايات عندما تصير مُصدّقة، فإنّ الخطر يقتصر على أولئك الذين يُوشَى بهم. أيضًا بالنسبة لأولئك الذين تجرّأوا على القتل، التعاسة تُصيب فقط الذي ذُبح. لذلك فإذا فحص المرء أي عملٍ ظالمٍ، فسيجد أنّ الظالمين هم الذين يغتنمون شيئًا، وأنّ المظلومين هم الخاسرون.

أما الزنا فلا يعرف هذا التمييز، ولا يفصل بين المجني عليه والجاني، بل يؤدي إلى نهاية مشتركة، ويربط بينهما برباط النجاسة. وحين يُقْبل الجشعون على إيذاء الآخرين، فلن يُخطئ سواهم في أي شيء. ولكن الزناة عندما يهينوا أجسادهم، فمن المستحيل ألاَّ يُهان الذين يشتركون معهم في نفس الفعل. ومن الممكن بالنسبة لمَنْ يقتل ألاَّ يُقتل مع مَنْ يقتله، إلاّ إنّه من غير الممكن للزناة إذا دنّسوا جسدهم، أنْ يظلّوا أنقياءً من الدنس.

الذي يزني يُفسِد جسده

إنّي أستأذنك أنْ تلاحظ دقّة الرّسول بولس، فهو يقول: «اهربوا من الزنا» لماذا؟ لأنّ كلّ خطيئة يفعلها الإنسان هي خارجةٌ عن الجسد، بمعنى: أنّها لن تُفسِد طبيعة الجسد، لن تؤدي إلى إهانة الأعضاء، ولن تنتهي بنجاسةٍ، لكنّها تُرْتَكب دون إلحاق ضررٍ بالجسد الذي ارتكبها. لكن: «الذي يزنى يخطئ إلى

جسده»[٥]. ليس مثل القاتل الذي يُخطئ إلى جسدٍ غريبٍ، ويحفظ جسده دون إصابة، ليس مثل الجَشِع الذي يضمر لآخرَ سوءًا يؤدّي إلى التأثير على جسده، أمّا الزاني فهو يفسد جسده. إنّه هو نفسه الذي يثقب ذاته بسهم الفضيحة أو العار.

والسارق يتجرَّأ على مخالفة القانون لكي يُطْعِم جسده، في حين أنّ الزاني ينتهز اللّحظة المناسبة لكي يسرق جسده. الجَشِع أو الشره يُستفذ لكي يسلب وأن يخطف بسبب ولعه بالربح، أمّا الزنا فيُفقِد الجسد وقاره.

وبالنسبة للحاسد أيضًا، فإنّ شهوته تتّجه نحو جسدِ شخصٍ آخر، بينما الزاني هو الذي يُسبِّب الآلام لنفسه. هل يوجد إذًا شيءٌ أكثر وضاعة من جسدٍ مُرتكب للزنا؟ لأنّ العبوديّة لأيّة خطيئة هي وضاعة (طالما أنّها تُحقِّر من طاقة النفس)، لكن الزاني هو عبدٌ مُحتقر جدًّا من الخطيئة. لأنّ عمله هو أن يُضيف عليها وحلاً، وأنْ يجمع كومةً من النجاسة، ويمارس عملاً دنسًا. أم أنّه ليس وحلاً أن يتمرّغ أحدٌ في الطّين، وأنْ تفسده الرذيلة، وأنْ يحمل جسدًا لا يختلف عن خرقةٍ ممزّقةٍ؟ لأنّه ما هو الاختلاف بين الخِرقة البالية والزاني؟ الزاني انفصل عن جسد التقوى، يَفْسَد في عفونة يوميّة، يُداس في طرق الخطيئة مثل خرقة بالية، ويصير موضعًا تدوسه الشياطين، بل والشيطان يُدعِّم أفكاره في هذا الاتّجاه.

ماذا ينتظر الزاني؟

الآن فمن حيث إنّ خطيئة الزنا ليست بالأمر الهيّن، فهذا أمرٌ واضحٌ وجليٌّ. أمّا بالنسبة للمصير السيّئ والرديء للزاني، فإنّنا نجد أنّ البيوت تتجنّبه، ولا يرغب أحد في مصاحبته، ومَنْ يقترب إليه يحتقره، أعداؤه يدينونه، ويكون مصدر خجل لأقاربه، وملعون للذين يُقيمون معه، ومَبْعَث حزنٍ لوالديه، ومنظر لخدّامه، يصير موضوعًا يرويه جيرانه ويسخرون منه، إذا أراد أن يتزوّج يرفضونه، وبعد الزواج يصبح زوجًا مشكوكًا في تصرفاته، وهو أبٌ مكروه

[٥] ١كو٦:١٨.

من أبنائه، ورمزٌ مُحتقرٌ من الجميع، يثير الاشمئزاز عندما يُقدّم شيئًا، وعندما يطلب يثير اشمئزازًا أكثر.

هو بائسٌ عندما يُنظَر من بعيد، وأكثر مَنْ يستحق الشفقة عندما يمرض، وعندما يموت لا يُكرِّمه أحد. وإذ يرى الرّسول بولس أنّ الزنا هو مصدر لعدد كبير من الخطايا، فقد أعطانا الأمر المُشدّد بالهروب المنتصر: «اهربوا من الزنا».

قيمة العفّة

هذا الأمر يُذكّرني الآن بفكر ذاك الشاب؛ يوسف، الذي أصبح متميّزًا في مواجهته للزنا أثناء وجوده في أرض مصر، فكانت مواجهته بالهروب. على الرغم من أنّه كانت هناك أمورٌ كثيرة ساهمت في أن يقتنع الشاب [بارتكاب الفعل] وهي محبّة الشهوة المرتبطة بالسن، نير العبودية، المداهنة العشقيّة من سيدته، الحوار المستمر عن الفجور، التحريض على المعاشرة سِرًّا. لأنّ الكتاب يقول: «إنّ يوسف يوم ما دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسانًا من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج»[٦]. عظيمةٌ هي قيمة العفّة، جَعَلت السيّدة عبدة لعبدها. لأنّ ذاك تقبّل توسلات حارّة، عندما توسّلت هذه إليه بشدّة قائلة: «اضطجع معي».

لقد كان سهم الزنا ملتهبًا ولكنّه لم يجد داخل النفس مادّة يمكن أن تشتعل، بل انطفأ داخل ثوبه الذي أمسكت به الشهوة الرديئة وصرخت: «اضطجع معي». كانت السيّدة تتأوّه من جوع الشهوة الجنسيّة، ولكن أذني الشاب العفيف أُغلقت أمام الصّرخة. لأنّ هذه قالت: «اضطجع معي» بينما العفّة صرخت في الشاب عكس ذلك. قالت انتظر لتسهر معي، بينما ذاك أظهر أنه يقظٌ لنفسه. مقاومته لم ترتخِ بالمداهنة، قراره لم ينثنِ أمام نفس النغمة، لم تسقط العفّة اليقظة في النوم، لم يستسلم في الأيدى التي أمسكته، لم يُمسَك

[٦] تك٣٩: ١١ــ١٢.

من الوجه الحسن، لم يتأثّر بمداعبة كلمات العشق، بل كانت هذه الكلمات وصوت سيّدته المداهن، أسوأ من اتّهام: «اضطجع معي».

لقد وقف الشيطان مُستعدًّا ليقوده للزنا، وضيَّق حوله الخناق وساعد الزّانية أن تمسك بالثوب، ولكنّه لم يعرف أنّه صارع مع فنّان، مُتدرِّبٌ على العفّة، إذ تجنّب بنجاحٍ قبضات تلك التي أمسكته. لأنّ الكتاب يقول: «فترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج»[٧]. ها إنّه عُري أكثر وقارًا من الاكتساء. وماذا فعل داء الفسق المصري؟ لقد حمّلت مسئوليّة قذارتها على يوسف، ركضت نحو زوجها وقالت له: «قد جئت إلينا برجل عبرانيّ ليداعبنا. دخل إليَّ ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم. وكان لمّا سمع أن رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج»[٨].

ومرّة أخرى يُتّهم يوسف والدليل هو الثوب. لقد أخذ أخوته قديمًا قميصه ووشوا به بسوءَ نيّة، وقالوا: إنّ الوحوش أكلته، والدليل كان هذا القميص. الآن فإنّ هذه تأخذ ثوبه وتقدّمه كزانٍ. وينطبق على يوسف قول الرب: «اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لُباسي ألقوا قرعة»[٩]. إنّ كلام العفّة يُعدُّ كلامًا حُلوًا بالنسبة للمجاهدين في طريق العفّة، إلاّ أنّها تعتبر شاقّة بسبب ضعف الجسد. كم كانت عادلةٌ حماية الله ليوسف. ولم يُكرِّم الله يوسف قبل التجارب، ولكنّه أظهر مستقبله عن طريق الأحلام، قائلاً: إنه منذ وقت بعيد أعدّ للأبرار أمجادهم، لكنه ترك التجارب لتختبر الشاب [أي يوسف]، وسدّ أفواه مُحبي الاتّهامات.

لأنّه إن لم يكن يوسف قد جُرِّب، لكان مُحبو الاتّهامات سيقولون إنّ كلّ ما حدث كان نتيجة لمصادفة أو فعل أعمَى. كيف يكون ملك المصريّين هو يوسف، كيف يحكم البربر شابٌ صغيرٌ! ما هي الفضيلة التي أظهرها؟ ما هو الانجاز الذي أتاح له هذا المنصب أو هذه المكانة؟ إذًا، فلكي لا يُقال ذلك عن

---

[٧] تك٣٩: ١٢.

[٨] تك٣٩: ١٤.

[٩] يو١٩: ٢٤.

البّار، سمح له الله بأن يُجرّب حتى تشهد له هذه التجارب، ولكي تُسدّ أيضًا أفواه مُحبّي الاتّهامات.

لنصدّ إذًا الرميات التي تأتي إلينا من شخصٍ زانٍ، لنغلق أعيننا أمام إثارات الفجور، لنَسْخَر من الشهوات العبثيّة، لتحرس العفّة أجسادنا، لتسكن في أعضائنا النقاوة، لنمارس حبّ الجمال بتعقُّل، لنستنير بنور أعمالنا، لنستضئ بالأعمال المُشرقة، لنحفظ أجسادنا هيكلاً نقيًّا لسُكْنَى الروح القدس، ولنحضر في داخلنا كلّ هذا كعلامةٍ مُخيفةٍ مُحذِّرةٍ، تنادي إنْ كان أحد يفسد هيكل الله فسيفسده الله[١٠].

أردت ألاَّ أنفصل عنكم ولا لقليل. لأنّه ما هو أجمل أو أحلَى من صحبة الأب لأبنائه الذين يحبّهم؟ ولكن نظرًا لأنّ كلمة التقوى تدعونا للجهاد، فينبغي أن ندعوكم إلى الكنيسة، آخذًا إياكم شركاءَ في الصلاة. بل وأترجَّى محبّتكم من أجل هذا، أن تصونوا نظام الكنيسة. ولو أثار البعض اضطرابات فلتتصروا عليها بطول أناتكم. لأن تهدئة الاضطرابات لا تحتاج إلى مماطلة. يجب ألاَّ تُقلقكم الشائعات الكثيرة، وألاَّ تغويكم الثرثرات المختلفة، بل ارفعوا صلواتكم لكي يتبعوننا في طريقنا أولئك الذين هم خارج الكنيسة، إذ أنّنا مدعومون بصلواتكم، ومسنودون كلّ لحظةٍ بالقوّة الإلهيّة حتى إنني أستطيع أن أقول: «أستطيع كلّ شيءٍ في المسيح الذي يقويني»[١١].

---

[١٠] ١كو ٣:١٧.

[١١] في ٤:١٣.